قصة لويس ده رجمون

تمهيد

لم نرَ في كل ما طالعناهُ من اخبار المتقدمين والمتأخرين حقيقيةً كانت او موضوعة شيئًا يفوق هذه القصةَ لا في غرابة حوادثها ولا في انطباق وصفها على ما يُعلَم من احوال البلاد التي حدثت فيها واخلاق اهلها. وقد ادَّعى راويها انها حقيقية وصدَّقهُ كثيرون من نخبة علماء الجغرافية لما رأوا الانطباق المشار اليه آنفًا لكن البعض ارتابوا فيها بعد ذلك وقالوا انها موضوعة او ان جانبًا منها حقيقي وجانبًا موضوع. ومهما يكن من ذلك فالوصف الذي فيها حقيقي يعوَّل عليهِ كما يعوَّل على صدق كتب الرحلات. وقد نشرت في جريدة العالم الانكليزية واقبل القراء على مطالعتها اقبالاً لا مزيد عليه واستأذنا صاحب الجريدة في نقلها ملخَّصة الى العربية فاذن لنا وسنشرها تباعًا مقتصرين منها على ما كثرت فائدتهُ العلمية ونضيف اليها من الحواشي ما تتمُّ بهِ الفائدة

الفصل الاول

قال الراوي: ولدتُ في باريس سنة ١٨٤٤ واخذتني امي الى سويسرا لخلاف وقع بينها وبين ابي فربيت فيها ورغبت في علم الجيولوجيا منذ نعومة اظفاري وكنت اجمع الحجارة والمعادن واسأل عن اصلها وكيفية تكوُّنها وكانت امي تزيد رغبتي في ذلك. ولما بلغتُ التاسعة عشرة من العمر دُعيتُ الى الانتظام في جندية بلادي وكان ابي يرغب في ذلك لكن امي لم تشر بهِ عليَّ بل نصحت لي ان اسافر الى الممالك الشرقية ابحث فيها عن سبيل للعيش واعطتني سبعة آلاف فرنك فمضيت الى الديار المصرية وفي نيتي ان ابلغ الاملاك الفرنسوية في اقاصي المشرق واطلب الرزق فيها وافت في القاهرة اياماً ثم مضيت منها الى سنقابورة [1] والتقيت هناك برجلٍ [2] هولندي اسمهُ جنسن من الذين يستخدمون الغوَّاصين للغوص على اللؤلؤ فاخبرني انهُ كان عازمًا على الذهاب الى بنانيا [3] للغوص على اللؤلؤ في بحرها ولكن لم يكن معهُ من المال

(١) جزيرة من الاملاك الانكليزية في بلاد الملبق بالقصي المشرق جنوبي ملقا سكانها نحو مئتي الف نفس أبناءها الانكليز من سلطان جوهر سنة ١٨٢٤

(٢) البرزخ من بحري السنغبة وقد عرَّبنا بها كلمة قيطان وفضلناها على كلمة ناخذاة التي كنا نستعملها لهذا المعنى قبلاً لان البرزخ ادور منها على الالسنة

(٣) بنانيا قصبة املاك هولندا في الهند الشرقية على الطرف الشمالي الغربي من جزيرة جاوى سكانها نحو مئة الف نفس

ما يكفيه لسفر اليها لانهُ يضطر ان يودع مع حاكم البلد جانباً من اجرة الغواصين الذين يستخدمهم . وكان معهُ سفينة محمولة اربعون طناً فعرضتُ ان اشاركهُ وادفع لهُ ما معي من المال فرضي بذلك واستخدمنا ربعين غوّاصاً من المتقنين الماهرين في الغوص واقمنا عليهم رئيساً منهم وسمحنا لهُ ان يأخذ معهُ زوجتهُ وجاريتها فكان عدد الرجال في سفينتنا اربعة وار بعين وكان مع الربان كلب اسمهُ برونو لهُ شأن كبير في القصة التالية

واهتمَّ الربان بتعليمي فن الملاحة حتى صار لي مشاركة فيه ومررنا بجزائر كثيرة وكنا نقف عند بعضها نشتري منها زاداً من الغنم والدجاج والاثمار ثم اقلعنا نحو غينيا الجديدة[٤] فسارت بنا السفينة سيراً متواصلاً تمر عباب المحيط ولم يكن للغواصين شغل غير الصلاة واللعب . وبعد ان مرَّ علينا شهر من الزمان بلغنا مكاناً ظنَّ الربان ان فيهِ صدف اللؤلؤ فالقى المرساة وكان في سفينتنا قارب كبير وستة قوارب صغيرة فنزل في القارب الكبير وجعل يبحث في البحر بمنظاره المائي وهو انبوب طويل من النحاس في طرفهِ بلورة وتبعهُ الغواصون في القوارب الصغيرة وكلما بلغ مكاناً قال ان فيهِ صدفاً وقفت القوارب الصغيرة حولهُ وبادر الغواصون الى الماء . ويكون في القارب خمسة او ستة ليغوصوا كلهم في الماء ما عدا واحداً منهم يبقى في القارب لحراسته وهم لا يلبسون شيئاً يقيهم من وحوش البحر ولا يكون معهم غير سكين يعلقونهُ بخيط في وسطهم . ولم يكن عمق البحر هناك غير قامتين او ثلاث قامات وان زاد كثيراً بلغ ثماني قامات . وهم لا يغوصون الى اعمق من ذلك واذا بلغ الغوّاص قاع البحر فتّش عن الاصداف التي فيهِ ثم عاد الى سطح الماء بصدفتين منها يمسكهما يسراهُ ويسبح بيمناهُ ولا يبقى تحت الماء اكثر من دقيقة واذا بلغ سطح الماء استراح ربع ساعة ثم عاد الى الغوص[٥] . وقاع البحر هناك مغطًّى بالنبات

(٤) غينيا الجديدة او الباپوعي جزيرة كبيرة شمالي استراليا وهي اكبر جزيرة في الدنيا بعد استراليا مساحتها اكثر من ٣٠٠ الف ميل ربع ونكن سكانها اقل من خمس مئة الف نفس

(٥) الغوص على اللؤلؤ صناعة قديمة قال النويري في كتابهِ نهاية الارب في فنون الادب في خزائن الملوك نقلاً عن ارسطوان الغائص اذا رأى الصدف اوقف مركبهُ قائماً وادلى حبلاً من ثقل او غيره فيهِ حجر ثقيل ان كان لماء حركة ثم يدلي الغائص بحبل وثيق مشدود بهِ حجر يكون وزنهُ ستون رطلاً او نحو ذلك من حجارة سود ينفرغ من سوادها الحيوانات المهلكة للغاصة . . . ولو جعلوا المحار ايضاً لتناولتهُ تلك الحيوانات طعاماً فاسرعت اليهِ . فاذا غاصوا ووصلوا الى الصدف قطعهُ الغوّاصون بما هو معدٌّ لذلك من المناجل ووضعوهُ في مخلال لهم كالشبكة من شريط ليسيل منها الماء ويبقى الصدف

وذكر المسعودي انهُ يكون عند الغاصة فواريرفيها دهن له في الماء بريق فاذا رأى حيواناً موذياً ارسلوا منهُ شيئاً في البحر فتراهُ تلك الحيوانات فتهرب منهُ وتفرغهُ . وذكر بوحنا بن ماسويه ان الغائص لا بدَّ في الغاصة حتى يخرق ما بين اذنيهِ وحلقهِ فيصير يصير تحت الماء مقدار نصف ساعة

ومفاد ذلك ان الغواصين لم يكونوا اجهز في ذلك الحين من غواصي سقاقيرة الآن

المختلف الاقدار والاشكال وفيهِ كثير من المرجان المختلف الالوان حتى كأنهُ غاب مشتبك الاجم والاشجار

وكانت اصداف كل غواص توضع على حدة في قاربهِ ثم يؤتى بها اليَّ فاعدها واكتب عدد كل فريق منها بجانب اسم صاحبهِ وهم يثقون بي تمام الثقة ولا يطمعون بما يزيد على اجورهم ولو استخرجوا الثمن الدرر بل يسرُّون جدًّا اذا اعطيتهم ما يكفيهم من الارز والسمك وبيض السلاحف واللبن وبعض الحلى الرخيصة الثمن. وكانوا يغيبون عنا ست ساعات في اليوم ثم يعودون ومع كل منهم نحو اربعين صدفة . وكنت اترك الصدف ليلاً على ظهر السفينة واقوم في الصباح وافتحهُ صدفة صدفة بسكين من سكاكين الاكل وابحث في لحمهِ عن اللؤلؤ وقد افتح مئة صدفة فلا اجدُ لؤلؤة واحدة وقد افتح صدفة واحدة فاجد فيها لؤلؤتين او ثلاثًا او اربعًا ووجدت مرة صدفة فيها ١٢ لؤلؤة . وكنت ارمي اللحم في البحر واحفظ الصدف لانهُ ثمين وقد كان الطن منهُ يساوي مئتي جنيه الى مئتين وخمسين جنيهًا اما اللؤلؤ فكنت اضعهُ في صندوق من خشب الجوز. ولم نبلغ نهاية ذلك الفصل حتى قال لي الربان انهُ صار معنا من اللؤلؤ ما يساوي خمسين الف جنيه عدا ما معنا من الصدف وكان نحو ثلاثين طنًّا . وقد وجدت درة مكعبة الشكل طولها عقدة في مثلها عرضًا وعمقًا لكنها لم تكن ثمينة لشوائب فيها. واثمن درة وجدتها كانت كبيضة الحمام وهي بديعة كثيرة الاشراق. ووجدت لؤلؤها وردي اللون ولؤلؤها اصفر ولكن اكثر اللؤلؤ الذي استخرجناهُ كان ابيض ناصعًا

ويخشى الغواصون صولة الاخطبوط اكثر مما يخشون صولة القرش (كلب البحر) والاخطبوط كبير في ذلك البحر وقد يمد يديهِ فيقبض على القارب والغوَّاص ويذهب بهما الى قاع البحر. واتفق مرة ان كانت القوارب بجانب السفينة وكان واحد من الغواصين في قارب منها وحدهُ فاتتهُ اخطبوطة كبيرة وقبضت عليهِ باذرعها وغاصت بهِ في الماء ورآهُ الغواصون رفاقهُ فبادروا الى انقاذهِ حالاً واتوا بشبكة كبيرة مسك بها جماعة منهم وغاصوا بها في البحر ونشروها تحت الاخطبوطة ورفعوها بها والرجل بين اذرعها الى القارب الكبير وخلصوهُ منها وهو بين حي وميت فصبنا عليهِ ماء مملحًا حتى افاق. ولم يختنق مع انهُ بقي في الماء اكثر من دقيقتين لانهُ كان معهُ سكين وكان يطعن بها الاخطبوطة وهي قابضة عليهِ فيولمها فتصعد بهِ الى وجه الماء مرة بعد اخرى فيستنشق قليلاً من الهواء ولولا ذلك لمات غرقًا

اما القرش فلا يخافهُ الغواصون بل يتهجمون بصيدهِ ويحسبونهُ من فرص السرور ولهم فيهِ مهارة تفوق الوصف فاذا رأوا جماعة منهُ بادروا اليها ثلاثة او اربعة منهم في قارب واتحى واحد منهم

على حافة القارب ويمزق قرشاً منها وللحال يصرخ هو ورفاقهُ صراخاً شديداً ويخبطون الماء بجذافيهم فتهرب الاقراش منهم اما القرش الذي وخز فيعود بعد حين ليرى ما وخزهُ وللحال ينزل الرجل الذي وخزهُ الى الماء ومعهُ عود صلب محدد من طرفيهِ حتى اذا دنا القرش منهُ وقلب على ظهرهِ وفتح فاهُ ليلتقمهُ ادخل الرجل يدهُ في فيهِ والعود فيها فلا يعود قادراً على اطباقهِ فيدخل الماء جوفهُ ويغرقهُ وبعد قليل يطفو على وجه الماء ميتاً ويركب الرجل على ظهرهِ ويسير بهِ الى القارب وهو يجذف برجليهِ

ولما جمعنا كل ما أمكننا جمعهُ من اللؤلؤ والصدف ونحونا من مخاطر كثيرة فرغ زادنا فعدنا الى جزيرة غيبا الجديدة واخذنا الزاد من اهلها واعطيناهم بدلاً منهُ سمكاكين وكلاليب وخرزاً ومنسوجات مختلفة . واقمنا عندهم اياماً اشتدت الالفة فيها بين رجالنا وبينهم حتى كان رجالنا ينزلون الى البر ويشاركونهم في العابهم وكثر ترددهم على سفينتنا حتى قلق الربان من ذلك واصر يوماً ان لا يسمح لاحد منهم بدخول السفينة . وحدث في ذلك اليوم ان رئيسهم وكان شيخاً جليلاً جاءنا مع كثيرين من كبراء قومهِ فمنعهُ الربان من الصعود الى السفينة فعاد ادراجهُ وقد اخذ الغيظ منهُ كل مأخذ ولحظنا منهُ ذلك وازدنا الابعاد عن ذلك المكان فرفعنا المرساة ونشرنا الشراع ولكن كان الهواء ساكناً لا يتحرك فاضطررنا ان نبقى في مكاننا ولم يكن الاَّ قليل حتى اخذت القوارب تجتمع امام الشاطئ وينزل فيها المقاتلة من اهل الجزيرة فسلحنا رجالنا بالقوس وتسلحنا انا والربان بالبنادق وكان معنا مدفع صغير من المدافع الرشاشة فخشوناهُ واقمنا ننتظر هجوم اهل الجزيرة علينا ثم اقبلت تلك القوارب تتهادى على وجه الماء والمقاتلون منتظمون فيها وقد نقشوا اجسامهم وتكبوا قسيهم ووضعوا الريش على رؤوسهم واسرعوا الينا فاشرت اليهم ان لا يتقدموا والاَّ اوقعنا بهم فاجابونا برشق السهام وكان في سفينتنا حبال كثيرة تتدلى منها الى البحر ليمسك بها الغواصون حينما يصعدون اليها من قواربهم ولم يسعنا الوقت لانتشالها فخفنا ان نحن اهملنا اولئك البرابرة ليصلوا الى السفينة انهم يصعدون على الحبال ويفتكون بنا فبادرناهم باطلاق الرصاص ثم اطلقنا عليهم مدفعاً رشاشاً فخرق بعض قواربهم وقتل كثيرين منهم فاضطربوا في امرهم وهموا بالرجوع عنا ولكن انتهم فجدة حينئذٍ فاعادوا الكرة ورشق السهام فانهالت علينا انهيال السيل ولكنها لم تصب احداً منا فاطلقنا عليهم مدفعاً آخر مزَّق قارباً من قواربهم وجرح كثيرين منهم ووقع التشويش في بقية القوارب وعصفت الريح حينئذٍ وكان شراع سفينتنا منشوراً فسارت بنا سيراً حثيثاً ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى ابعدنا عنهم وتركناهم يعضون كف الندم

وقلق الغوّاصون ممّا جرى واطّلعوا على الربان ان يبعد بنا عن ذلك المكان ويمضي الى مكان آخر وبعد جدال طويل انصاع الى طلبهم وسار بنا اسبوعاً من الزمان ثم القى مرساة السفينة وامر الغواصين ان يغوصوا فوجدوا صدفاً كثيراً

وكنت ذات يوم افتح الصدف على جاري عادتي فوجدت ثلاثاً من اللؤلؤ الاسود الكبير العالي الثمن ولما اريتها للربان وقف مدهوشاً وقال انها تساوي كل ما معنا من اللؤلؤ وانهُ لا بدَّ من العثور على غيرها في ذلك المكان

وبلاءُ ثم وبلاءُ لا كانت تلك اللآلئ السود بل الدواهي الغبر فانها جرّعتني كؤوساً امر من العلقم . قلتُ ان الربان دُهش من رؤيتها وألقى على نفسي ان لا يبرح ذلك المكان حتى يعثر على كثير منها فجعل الغواصون يغوصون في طلبها يوماً بعد يوم ومرّت الايام والاسابيع ولم نجد لؤلؤة اخرى سوداء لكن الربان ازداد شغفاً بها واعتراهُ ما يسمّى بحمّى اللؤلؤ فلم يعد يسمع لنا نصحاً ولا قولاً وتغير الهواء وثارت العواصف وهو لا يبالي الاَّ بالبحث عن اللؤلؤ الاسود وصار ينزل في قاربه الكبير ويمضي مع الغواصين ويتركني وحدي في السفينة . وحدث ذات يوم انهُ ذهب معهم على جاري عادته وذهبت معهم المرأتان ايضاً لانهما كانتا تغوصان كالرجال ولم يبقَ في السفينة غيري وغير الكلب ولم يبعدوا عنا كثيراً حتى عصفت الرياح وعلت الامواج فعاد الغواصون الى القارب الكبير وحاولوا الرجوع بهِ الى السفينة لكن الامواج كانت تبعدهم عنها الى ان اختفوا عن نظري وكان هذا آخر عهدي بهم . وكانت السفينة راسية وكان شراعها مطوياً فلم اخشَ بأساً ولكنني خفت على القارب ومن فيهِ . واشتدت العواصف في منتصف النهار حتى لم اعد استطيع الوقوف على ظهر السفينة فربطت وسطي بحبل طويل الى دقلها حتى اذا طرحتني عنها العواصف او الامواج لا اغرق بل اعود اليها متمسكاً بالحبل . ثم هطلت امطار غزيرة اعمت بصري وعند الساعة الثانية بعد الظهر بلغت الزوبعة اشدها فمزقت الشراع كل ممزّق وذهبت بهِ الى حيث لا ادري . وحينئذٍ سكنت الريح بغتة وانقطع المطر ولكن بقي الجوُّ مطبقاً بالغيوم والبحر ثائراً هائجاً فصعدت الى مكان مرتفع ونظرت حولي فلم ارَ الاَّ بحراً عجاجاً متلاطم الامواج وتمثّل امام عيني اني وحيد شريد في الدنيا لا ناصر لي ولا معين لكنني لم أيأس لانني كنت اثق بالله . وخطر لي حينئذٍ ان اقطع حبل المرساة واترك السفينة لرحمة الامواج لعلها تقذفها الى حيث كان رفاقي وقبل ان افعل ذلك علت موجة كبيرة واكتسحت كل ما على ظهر السفينة واخذت معها كل الابر المغنطيسية والخرائط البحرية فايقنت اني هالك لا محالة ولو لم اكن ربطت نفسي بالدقل لجرفتني المياه

مع ما جرفت. ثم عادت العواصف تقصف اشد من الاول وصرت اتوقع غرق السفينة لحظة بعد لحظة وكان على ظهرها برميل كبير فيه زيت مستخرج من دهن السلاحف كنا نقع اللحم فيه فلما قلبتهُ الامواج سال ما فيه من الزيت وجعل ينصب في البحر رويداً رويداً ولحال خفّت الامواج وسكن اضطراب البحر ودام هذا السكون كل مدة انصباب الزيت

ثم عاد البحر الى اضطرابه وباتت امواجهُ تتقاذف السفينة على غير هدًى الليل كلهُ الى الفجر وحينئذٍ خمد الاضطراب وسكنت العاصفة حتى اذا كانت الساعة السادسة صباحاً لم يبقَ منها الاَّ نسيم لطيف فنظرت الى السفينة فوجدتها سليمة لم يدخلها الماء ولم تصب بمكروه ففتحت باب غرفة كنت قد حبست الكلب فيها فوثب الى ظهرها كأنهُ اصيب بجنّة وجعل يطفر ويتبح وينظر اليَّ مستغرباً. ولم اكن اعلم اين موقعي من ذلك البحر الواسع ولا الى اين اوجه مقدم السفينة وكان يخيل لي ان في البحر جزائر كثيرة معمورة بالماء ولا بدَّ من ان ترتطم السفينة بها قريباً. وكانت الدفة قد انكسرت فربطت حاذفين كبيرين واوصلتهما بمؤخر السفينة وجعلتهما دفةً لها . ووجدت في خزانة الاشرعة شراعاً صغيراً فنشرتهُ واطلقت لها العنان وسرت الى جهة الجنوب الغربي لعلي اقع على جزيرة من جزائر هولندا الهندية

وليتصوَّر القارئ حالي وحيداً على ظهر سفينة في عباب بحر لا قرار لهُ بعيداً عن كل مؤنس غير عارف ما اصاب رفاقي من المكاره. وظلت السفينة تسير بي اثني عشر يوماً وانا انشر شراعها نهاراً واطويه ليلاً . وفي مساء الثالث عشر نظرت جزيرة عن بعد والدخان يصعد منها ولما قاربتها رأيت فيها كثيرين من البرابرة وهم عراة الابدان وقد اشرعوا رماحهم وانتظروا اقترابي منهم فحاولت ابعاد السفينة عنهم فلم تبعد بل كان التيار يسوقها اليهم رغماً عني واخيراً رأيت انها مسوقة الى بوغاز ضيق بين جزيرتين فسلمت للقدر المحتوم ولما بلغت اضيق مكان في البوغاز رأيت فريقاً آخر من البرابرة في انتظاري ورماحهم بايديهم وهم عراة طوال القامة كأنهم من جبابرة العصور الغابرة فجعلوا يرشقونني بها وكنت قد وجدت ذروة على ظهر السفينة فاستذريت بها ولم اصب بمكروه ورمرني ايضاً بعضي عقفاء كالمرجون وهي المسماة بالبومران وكانت العصا منها تبلغ ظهر السفينة ثم تنعطف وتعود الى راميها فعلمت منها انني في استراليا لان البومران من اسلحة اهلها . وكان التيار شديداً فجزت البوغاز حالاً وابتعدتُ عن اولئك البرابرة ولم اكد ابلغ الجهة الاخرى حتى رأيت البرابرة قد نزلوا في القوارب وجدُّوا في اثري لكنني ابعدت عنهم سريعاً لشدَّة الريح واختفت جزيرتهم عن عيني. ومرَّت اربعة ايام بعد ذلك وانا لا ارى غير السماء والماء وفي اليوم الرابع تغيرت الريح واشتد هبوبها

وكان معي في السفينة طعام كثير من المتعدات وماء قراح في براميل وقاني فكنت في واحد ان من هذا القبيل ولم اكن انشى الاّ من اصطدام السفينة بصخور الجزيرة مرجانية وغرقها بي. وفيما كنت افكر في ذلك والزوبعة تزيد شدة لطم قاع السفينة صخور المرجان فارتجت كقضيبة تحركها الريح ولم تكد تخلص من صخرة حتى علقت بآخر ثم تشب مؤخرها امام جزيرة صغيرة وجعل يغرق وبقي مقدمها مرتفعاً عن الماء فبادرت الى بعض الصناديق والبراميل وحللتها لكي تطفو على وجه الماء وتقذف اليّ الى الجزيرة ولما ارتفع الماء في السفينة حتى كاد يغمرها كلها خلعت ثيابي ورميت نفسي في البحر لاسبح الى الجزيرة وتبعني الكلب وجعل يسبح امامي والتفت اليّ مرةً بعد اخرى حتى اذا بلغت الشاطئ وحاولت الصعود اليه دفعتني الامواج وعادت بي الى البحر فاسرع الكلب اليّ وقبض على شعر رأسي وحاول ابقاءهُ فوق الماء. وجعلت الامواج تتقاذفني وتمنعني من البلوغ الى البر حتى خارت قواي ولم يفارقني الكلب لحظة واخيراً قبضت على ذنبه فمضى فاربي رويداً رويداً الى ان بلغنا الشاطئ سالمين ولكنني كنت خائر القوى جسداً وعقلاً فانطرحت على الرمل الى ان استرحت قليلاً ثم قمت اطوف حول الجزيرة فوجدتها رملية قاحلة لا يزيد طولها على مئة متر وعرضها على عشرة امتار ولو خطر ببالي حينئذٍ انني سابقى فيها سنتين كاملتين لطار عقلي ولكنني لم افكر الاّ بنجاتي من الغرق فحمدت الله ورجوت ان اخلّص من السفينة كثيراً من الطعام والشراب فشكرت الله لان صخور المرجان حفظتها من الغرق التام. وبعد قليل سكن اضطراب البحر فنزلت اليه وسبحت الى السفينة وصعدت اليها واخرجت ما فيها من الاطعمة والاحرمة وقاني الماء وصنعت رمثاً من اخشابها وحملتها فيها وحاولت ازالته الى البحر ولكن كان المدّ لم يزل شديداً فعدلت عن ذلك ونمت تلك الليلة على مقدمها لانهُ كان لم يزل فوق الماء

وقمت في الصباح وكان البحر قد صار رهواً فانزلت الرمث ووضعت عليه كثيراً من الامتعة مع صندوق اللؤلؤ وسرت به الى البر. ثم طفت في الجزيرة مرةً اخرى فوجدت في احد جوانبها جمجمة وعظاماً بشرية فاقشعرّ بدني من رؤيتها واخذت انكت الرمل فوجدت نحو ستة عشر هيكلاً من العظام فجلست امامها كاسف البال وقلت في نفسي ان عظامي ستضمّ اليها قريباً. ولم ار حيواناً في الجزيرة ولكنني رأيت فيها كثيراً من طيور البحر وعشاشها فجمعت كثيراً من بيضها واكلتهُ نيئاً. وجزر البحر حينئذٍ فبانت الصخور من الجزيرة الى السفينة فذهبت اليها ماشياً على قدميّ واتيت منها بفاس وقوس وسهام. وكنت ماهراً في رمي السهام منذ حادثتي وكان في السفينة بنادق كثيرة ولكن البارود الذي كان فيها تبلّل بالماء فلم يعد صالحاً لشيء

ولما عدت الى الجزيرة حاولت ثانية حبس وحاولت ضرام النار فيها بترك العيدان فلم افلح. ثم عدت الى السفينة في الايام التالية ووجدت فيها كثيرًا من الخشب البالغ الاشتعال وهو من غيبتي الجديدة ووجدت ايضًا فأسًا من الصوان فجعلت اضرب بها فاس الحديد الى ان اوريت نارًا في نشالة احطتها بها ثم اشعلت جانبًا من ذلك الخشب ونبشت كوخًا من الاخشاب التي اتيت بها من السفينة وحفرت حفرة في جانبه اوقدت النار فيها وكان همي الاكبر الاحتفاظ بها

ومرَّت الايام وانا ازيد وحشة فازيد للوحشة الفةً وازيد بالكلب انسًا وكنت اراهُ يفهم كل حركاتي وسكناتي حتى كنت اخاطبهُ بكلام مفهوم كأنهُ انسان مثلي. وايقنت اني على جزيرة لا تمر بها السفن لانني كنت اركب مرورها يومًا بعد يوم فلم ارَ لها اثرًا ورفعت علمًا على اعلى مكان فيها وكنت اصعد اليه كل صباح وكل مساء وارقب البحر على مدى نظري فلا اري شيئًا. وكان الحرُّ يشتدُّ في النهار حتى اذا دخلت اشعة الشمس خرقًا في ثيابي احترق جلدي تحتهُ فرأيت ان الالتفاف بحرام دقيق اصلح من لبس الثياب ثم حرمت احتلامها وابقى عاريًا النهار كلهُ

وانقذت من السفينة كثيرًا من حبوب القمح والذرة ولم يكن في الجزيرة ماء لارويها به لكني كنت اجد فيها كثيرًا من السلاحف كانت تختلف اليها وتبيض فيها فقبضت على بعضها وقتلتها ونزعت اصدافها وملأتها رملاً وترابًا جبلتهما بدم السلاحف وزرعت الحبوب فيها فافرخت ونمت وظللت ارويها بدم السلاحف الى ان افركت وحصدت فرأيت الحبوب عندي وضعت من كل منها قرابًا كنت اقام عليه واتيت بكل الاصداف من السفينة ونبيت بها كوخًا كبيرًا

وكان طير الحوصل يعشش في الجزيرة ويأتي الى فراخهِ بالسمك الكثير في جرابهِ فكنت اقصدهُ واختلس سمكهُ. ونصبت عصًا في الرمل ورسمت تحتها خطوطًا كخطوط المزولة كنت اعرف بها ساعات النهار تقريبًا. وكنت اعدُّ الايام بالاصداف واضبط الشهور بالقمر وافرض فرضًا على قوسي كلما مرَّ شهر. وجعلت اروض بدني على الوثب والقلب في الهواء لكي اشغل بالي عن التفكر بالحالة التي كنت فيها. وحلَّت الامواج السفينة ودفعت اخشابها الى البر فصنعت منها قاربًا صغيرًا بعد عناء يعجز اللسان عن وصفهِ وانزلتهُ الى البحر ولكنني وجدت بعد انزالهِ ان البحر هناك بركة تحيط بها صخور المرجان من كل ناحية فلا يستطيع القارب الخروج منها فاسقط في يدي وكدت اموت كمدًا

ولما كاد الماء القراح ينفد مني جعلت اغلي ماء البحر بمرجل انقذتهُ من السفينة واقطرهُ

في القناني واشرعهُ الى ان تهطل الامطار فانية فاملأ آنيتي منها واحتفظها الى حين الحاجة اليها. ومسكت طيوراً كثيرة اكتب اربط في رقابها قطعاً من القصدير بعد ان اكتب فيها بمسمار اني على جزيرة رملية قفراء في عرض البحر واستغيث بكل من تقع تلك الصفيحة في يدهِ. وعلمت بعد ذلك ان طائراً منها أمسك في غربي استراليا ولكني لم استفد منهُ شيئاً

وبعد ان مرَّ عليَّ في الجزيرة اكثر من سنة حلمت حلماً طابت لهُ نفسي وسمعت وانا في الحلم منادياً يناديني بصوت مألوف قائلاً انا معك لا تخف ستعود سالماً. فنهضت حالاً وانا واثق اني سمعت صوتاً حقيقياً وان صاحب هذا الصوت قريب مني فجعلت افتش عنهُ في الكوخ وما حولهُ. ولما لم اجد احداً عدت الى فراشي وقد رسخ في نفسي اني سأنجو من تلك الجزيرة عاجلاً او آجلاً

وبعد ان مرَّت عليَّ سنتان سمعت الكلب ينبح ذات يوم وبادر اليَّ وكأن لسان حالهِ يدعوني لاتبعهُ فاخذت عجلاتي بيدي وتبعتهُ ووقفت حيث وقف ونظرت الى البحر واذا بشيءٍ اسود تتقاذفهُ الامواج ثم تحققتهُ فاذا هو قارب وفيهِ اناس كثيرون مطروحون عليهِ

سيأتي البقية

اعتراض على علاج السل

ما انتشرت المقالة التي لخَّصناها في الجزء الماضي عن علاج السل الثاني بواسطة الطعام الكثير والراحة والهواء النقي حتى تصدَّى علماء الطب لانتقادها وفي جملتهم الدكتور كرغهل رئيس الاطباء في مستشفى فنتور ببلاد الانكليز فانهُ كتب مقالة مسهبة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية ذكر فيها بعض اساليب العلاج التي عولج بها داء السل من قديم الزمان. ويظهر لنا انهُ اثبت الطريقة المشار اليها وهو يقصد اضعاف حجة اصحابها. ولا عبرة بما اوردهُ من اختلافهم في بعض التفاصيل كقول بعضهم ان مشي المسلول يجب ان يكون صعوداً وقول الآخر انهُ يجب ان يكون نزولاً لان هذا الاختلاف لا يمس جوهر الطريقة. ولكنهُ اورد من احدث ما كتبهُ الاطباء القائلون بها شواهد كثيرة على انهم لا يقتصرون في معالجة السل على الطعام الكثير والراحة والهواء النقي بل يعالجون اعراضهُ المختلفة بما يناسبها من طرق العلاج المعروفة وهو مصيب في ذلك. قال وفائدة الهواء المطلق للمسلولين معروفة من ايام بقراط ابي الطب فانهُ اشار على المسلولين بالسكن في الاماكن التي تسهل عليهم فيها الاقامة في الهواء